الطوفان

قصة بقلم هاشم الامين

كنا في « الدائرة » بضعة عشر موظفاً . وكانت وظيفتنا — أو هكذا كان يجب ان تكون — إنصاف المغبونين في قيد الاحصاء الذي اجري ، في اول الحرب الكونية الثانية ، لتوزيع الخبز توزيعاً مقنناً .

اما وظيفتنا الفعلية فكانت « اقناع » المغبونين بانهم غير مغبونين ..

وكان اكثرنا من الطلاب الجامعيين الفقراء ، قد استعانوا بهذه الوظيفة على مشقات الدراسة ونفقاتها؛ فهي لديهم دار ممر.. ولذلك ما كانوا اختصاصيين بـ « علم » الوظيفة — هذا السحر الذي يقلب ، إن شاء ، حق فريق من الناس إلى باطل ، وباطل فريق آخر الى حق . فكان طبيعياً ان تنتهي المناظرة ابداً بيننا وبين المراجعين باقتناعنا نحن انهم مغبونون ..

وهكذا كنا ابداً في مهمة اقناع .. اما اقناع الجوعانين بانهم شبعانون ، وإما اقناع رؤسائنا ان الجوعانين جوعانون . وكلا الفريقين لا يقتنع طبعاً. فلا بد لنا ابداً من سواد الوجه — سواد الوجه امام الشعب او امام رؤسائنا . كنا « ستاراً » يسدل بين الشعب وبين ضابطين عسكريين يمثلان دولتين اجنبيتين محتلتين وموظف وطني كبير، يرئسون جميعاً «المصلحة».

وكان للدائرة مدخلان مختلفان . احدهما يفضي الى امام « الستار » والآخر إلى ما وراءه. وكان كل من الداخلين يعرف مدخله : الاقطاعيون وارباب البوايك والمطاحن الكبيرة يقبلون بثيابهم الحريرية والشالات الهندية والدراعات المقصبة ، والوجوه المكتنزة ، بسيماء فيها استهتار البطر، وشموخ الآمن مؤاخذة القانون وسلطة الساطان ، إلى غرفة من غرف الرؤساء الى ما وراء « الستار » ، حيث تعقد صفقات تهريب القمح الى تركيا ، ومنها الى المانيا الهتلرية ، وتدرس وسائل حجز القمح عن يد الشعب لاحتكاره . وابناء الشعب، الفقراء والمتوسطون، يقبلون الى امام حاجز خشبي يفصل بيننا وبينهم — الى امام « الستار » . يقبلون بعضهم متهيب ، وبعضهم ساخر ، وبعضهم مرتبك حائر لا يدري ما يصنع .

ولم يكن بد من مجيئهم اليناكل يوم بالعشرات . ولم يكن بد من رجوعهم عنا فارغين حتى من خفي حنين . فلم تكن لهم وسيلة للانتصاف غير وسيلة واحدة ، هي ان يغلقوا المدخل الآخر من البناية .

ظل هذا المشهد يتكرر مألوفاً مدة طويلة . وكان القمح ينفد شيئاً فشيئا ، فيزداد الخبز رداءة بما يستعاض به عن القمح من حبوب واشياء اخرى .

وجاءني يوماً واحد من رفاقي الموظفين ، كنت الاحظه ابداً دقيقاً متأنياً ، يستطلع ما وراء الظواهر ؛ فهو يخلو من تلك السيماء التي تمسح اكثر الموظفين بمسحة المكنة وحركاتها ، من اعمال مكتبية رتيبة لا روح فيها . قال :

— اني لأعجب ! كيف تدوم مثل هذه الحال ؟

فقلت :

— وما هو وجه العجب؟ احكام عرفية، وحاكم قوي مسلح، وشعب اعزل !

— اجل ! وهذا هو الذي يحملني على العجب . فقد جعلتني طبيعة عملي اعلم وأحس وأرى ما لا عهد لي بمعرفته قبل اليوم من عنف وروعة في تعارض مصالح الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة ، تعارضاً ملحاً لا سبيل الى الصبر عليه ، إذ لا وجه يوفق بين المصلحتين .

إذن فكيف تدوم هذه الحال ؟ اكبر ظني انها لن تدوم ، إلا اذا تغيرت طبيعة الأشياء . فالماء المنحدر صباً لا بد له ان ينحدر . فاذا اعترضه سد فلن يلبث السد والماء معاً إلا ريثما يصبح الماء شيئاً آخر غير الماء — ولا بد له ان يصبح شيئاً آخر غير الماء ؛ يصبح قوة كاسحة جارفة تأبى طبيعتها السدود وتقوى على خرقها .

وصفن لحظة ، ثم قال :

— هل بلغك ان المدينة تبيت الليلة وليس في المصلحة شيء تمون به الأفران لخبز الغد ؟ فقد نفد القمح ، وظل الرؤساء الثلاثة مجتمعين اليوم ساعات لتلافي الأمر ، فلم يجدوا حيلة لتموين

المدينة بالخبز إلا الفاصوليا !

– الفاصوليا ؟ !

– اجل . ففي المستودعات كميات كثيرة من الفاصوليا البيضاء، ارسلوها الى المطاحن. وستأكل غداً خبزاً مصنوعاً منها.

وظهر لون الفاصوليا في الخبز ، في غد ذلك اليوم ، ابيض زاهراً ، كأنما اتخذ الخبز من لباب القمح ، حتى عجب الناس ، ولبثوا يتساءلون عن السر : يا هل ترى لماذا عادت الحكومة فجادت عليهم بخبز من القمح الصافي ؟ !

وأقبلوا على الخبز إقبال المشتاق . لكن سرعان ما انكشفت لهم الحقيقة ، بما وجدوه في الخبز من جشوبة ، وما عانوه في بطونهم من مغص . .

فكان الغضب مضاعفاً : لم يكف ان الخبز مغشوش ، حتى جاءهم بهذا الوجه المخادع ، وكأنه يسخر منهم ايضاً !

لم استطع ان أفهم على وجه الدقة كلمة صاحبي : « لن يلبث السد والماء معاً إلا ريثما يصبح الماء شيئاً آخر غير الماء – ولا بد له ان يصبح شيئاً آخر غير الماء – » إلا في ذلك اليوم ، يوم الخبز المصنوع من الفاصوليا .

صحيح ان صنع الخبز من الفاصوليا لم يكن امراً مستغرباً في تلك الأيام ؛ فقد طالما أكل الناس الخبز ممزوجاً حتى بدقيق الحصى والتراب . غير ان خبز ذلك اليوم كان آخر قطرة تنقص الماء المحجوز وراء السد ليصبح « شيئاً آخر » غير الماء .

★

كانت بناية مصلحة الاحصاء مطوقة بالجماهير الهائجة . ونحن في داخلها لائذون بإحدى الزوايا ، وبيننا رئيسنا ، وهو احد الضابطين الأجنبيين ، لا يستقر نظره على شيء ، مغبر الوجه ، متقلص فم تتلاحق عليه ابتسامات مترجرجة صفراء. واصوات الحجارة ، وهي تضرب الجدران والأبواب ، تتوالى على اسماعنا.

وتطلعت أفتش عن صاحبي ، ذاك الموظف الذي حدثني بالأمس حديث السد والماء ، فما وجدته . وراحت عيناي تبحثان عنه على غير طائل . فخشيت ان يكون قد اصيب بسوء ، واندفعت أبحث عنه في الأماكن الأخرى من البناية ، حتى افضيت الى ما وراء الباب الخارجي ، فإذا بصاحبي متسانداً شباكاً ، يلتزم حواجزه بكل جسمه بعصبية ظاهرة ، ينظر الى الخارج من ثقب في الشباك .

فلما أحس بي التفت ، فأبصرت وجهه يغلي انفعالاً ، ويشرق بغبطة طاغية عنيفة . ثم سرعان ما نط الى جانبي ، فاختطف يدي بيده وجرني ركضاً صوب السلم .

– الى اين ؟ صحت به

– الى السطح نتابع سير المعركة .

– مجنون ؟ !

– صدقني اني من الاطمئنان بحيث اؤمن ان حجراً قد أقذف به من الشارع ، لن يمس جسمي ، وإنما هو يرتد عني الى احدى النوافذ ، فلا يزال يلف ويدور ، حتى يستهدي الى رأس ذلك الضابط الأحمق المتغطرس فيشجّه دوني . اجابني بذلك ، وكلماته تفور من بين شفتيه فوراناً حاراً ، ووجهه ضاحك يتدفق بانفعال عنيف ، وانفاسه تتلاحق سريعة .

ثم قال : اريد ان أرى من على السطح طريقة امنص بها الى الشارع ، فلا يشك بي المتظاهرون ، فأرمي معهم ولو بحجر . .

فانطلقت في اثره ، نصعد السلم سريعاً ، وقد بعثت ثورته الخالصة في قلبي فيضاً من روعة واحترام .

وعلى السطح جثونا نتطلع .

شاهدت سيلاً متدفقاً جارفاً ، إلا انه من بشر .

فمن مخارج الاحياء البعيدة ينسرب الناس افراداً وجماعات صغيرة متفرقة ، متجهة صوب الساحة العامة ، حيث تقوم الدوائر الرسمية . فاذا وصلت الى مركز دائرتنا ، وهي خارج الساحة العامة قريباً منها ، اتصل بعضها ببعض ، فاذا هي طوفان طاغٍ ، يحيط بالدائرة ، ثم يفيض فائضه عنها منحدراً نحو الساحة العامة ، فدائراً بها من اكثر جهاتها .

وتتدافع امواجه الى مداخل الساحة ، فيحجزها البوليس وسلاحه .

وأبداً لا تزال تلك الشُعَب الضيقة البعيدة تمد الطوفان بتلك الروافد .

والتفت الى جانب فرأيت جماعة كبيرة من اطفال حفاة انصاف عراة ، جمّلت ، حتى الروعة ، مظاهرُ الحماس والشجاعة فيهم ، ما شوّه الفقر والضعف من اجسامهم وثيابهم ، منتشرين حول بناية لم يتم بناؤها بعد ، يجمعون في ذيولهم كسارة حجارة البناء ، ثم يركضون بها صوب الرجال ، فيفرغون « الذخيرة » بين أيديهم ، ثم يعودون ركضاً ليجمعوا غيرها .

وتتساقط الحجارة مثل المطر على الساحة ، وتندفع وراءها امواج الطوفان ، ولكنها لا تلبث ان ترتد عن البوليس وسلاحه.

وتطلعت الى أقرب مخرج من مخارج الاحياء الينا — الى زقاق ضيق انعقدت فوقه قناطر تزاحمت وتعارضت على غير نظام، حشرت فوقها كيفما اتفق غرف لزقت بالأبنية تلزيقاً ، مما يحتال به الفقراء لتكبير بيوتهم الضيقة ، وتعلقت خصاص خشبية توشك ان تسقط ، وقامت على جانب من رأسه بركة صغيرة من حجر اسود لا تنفك تطفح طفحاً خفيفاً بماء قذر ينصب فيها ، وامرأة كهلة سمينة سوداء تطلع من رأس الزقاق كأنما قذف بها من منجم فحم ، وقد ردت برقعها الاسود عن وجهها فطرحته على رأسها ، وفتحت ملاءتها عن صدرها، فألقت بطرفيها وراء ظهرها .

وما هي إلا ان لاحت لنا حتى تدفقت وراءها نسوة على شكلها . وأوحى إلي منظرهن وزيّهن اني اشمّ رائحة مثل الرائحة التي تفوح ابداً من ثياب الحبازات .

كانت قائدة النسوة تصرخ بكلام لم أتبينه ، فتردد النسوة كلامها بأعلى صوت ، وهن يشبّرن بأيديهن ، ثم يصرخن جميعاً بولولة مخيفة .

لم تكن الجرأة والمظهر الشعبي الغاضب هو وحده مجلى هذه اللوحة ، بل زوّق اللوحة ايضاً رنة خاصة في اصواتهن، فيها مكر من محكوم صح له مرة ان يهزأ من ظالمه ويشمت، إذ هو يستطيع ان يقول له كل شيء ، فلا يخشاه .

ومن احد اطراف المدينة لاح لي فلاح هرم يسوق حماراً عليه سحارتان . وما هي إلا ان حاذى طرف المظاهرة ، حتى أوقف حماره ، ووقف لحظة يتطلع ، ثم سرعان ما مال نحو المتظاهرين ، فأفرغ السحّارتين بين ايديهم — « ذخيرة » من البندورة . . .

— هؤلاء هم « الغوغاء » ! أما « السادة » الفتيان فأولئك الذين نهبوهم !

قال لي صاحبي ذلك ، وهو يدور برأسه في كل النواحي ، يقلّب عينيه بين امواج الطوفان ، ويتلمس طريقة يلص بها الى الشارع ، الى المظاهرة .

وفي وقت معاً شاهدنا قائد الدرك يقبل من ثكنته ، من وراء المظاهرة ، حتى يصل الى الطرف الذي يقابله منها ، فيشق لنفسه طريقاً بين المتظاهرين ، وهو يحادثهم ويلاطفهم ويبسم لهم . فأدركنا من ذلك انه يرجو ان ينهنه من غضب الجماهير . ثم جعل يتقدم بين الناس ، في مدخل الساحة العامة ، الواقع امام دائرتنا . وكان أعزل بلا حرس مبالغة منه في التحبب الى الشعب ، فلا يقابل إلا بصمت حزين مترفع ، أو نظر شزر ، أو إعراض غاضب ، حتى استقر في وسطهم ، وقد استطاع ان يستدرج بعضهم الى الحديث ، فاستداروا به يحاورونه ويحاورهم ، ويحاول ان يباسطهم ويضاحكهم .

وطال الوقت على المتظاهرين ، وبلغ الموقف ذروته ، وبدا ان لا بد من حدوث شيء حاسم ، كانت طلائعه في اشتداد ضغط الجماهير على البوليس ، فأدرك ان الموقف مفلت من يده ، فطفق يطلق الرصاص في الفضاء زيادة في الارهاب . وأطلق العصي وأعقاب البواريد في اجسام المتظاهرين إطلاقاً شديداً ، فرأينا وجوهاً ورؤوساً تتهشم ، وآخرين يغمى عليهم من شدة الضرب .

ثم انحدرت رصاصات في قلب المظاهرة، وتضرجت الأرض بالدم ، وأخذ الناس ينقلون جرحاهم من المعركة . .

واشتد رمي دائرتنا بالحجارة ، وتحطم كثير من زجاجها ، واصبح الذين كانوا في داخلها مرمى مكشوفاً للحجارة ، فصعدوا الى السطح ، حيث الخطر الآن اقل . وبصورة عفوية انضم بعضنا الى بعض في مكان واحد من السطح ، وقفنا فيه نشرف على المعركة ، تاركين وراءنا الضابط الاجنبي يقف وحده بعيداً عنا ، ويداه معقودتان وراء ظهره ، وعلى فمه المتقلص تتلاحق تلك الابتسامات المتوجرجة الصفراء .

وبدا أن المجزرة امر محتوم. فالبوليس يطوق الساحة ،وقد لبس للمعركة كل ما يملك من سلاح . وحرابه مشرعة تتلمظ الى الدماء البريئة ، ورصاصه يستشري حقداً .

كانت الجماهير قد ارتدت ، ولكن على غضب لا صبر عليه. فبادرة البوليس ، وان منعت اتصال الاصطدام ، فقد بلغت بموجة التوتر الى اقصى شدتها .

وكان قائد الدرك لا يزال بين المتظاهرين ، وقد بدا ان لا بد له من الانسحاب .

لكن ما لبثنا ان رأينا بضعة شبان ينقطعون عن الجمهور ، فينفردون ناحية ، ويتداولون بينهم حديث لحظة ، يطلقون بعده قهقهة فوز عالية . ثم عادوا ركضاً فشقوا طريقهم بين الجمهور ، الى حيث يقف قائد الدرك . فحملوه على اكتافهم ، واخذوا يعيّشونه مندفعين به الى مقدمة الجمهور ، الى الساحة العامة . .

وسرعان ما لمعت في اذهاننا الاحبولة التي نصبها الشباب

الفردية في الادب

بقلم احمد كمال زكي

> « ليس هناك شيء ألزم الى الاديب كفنان من البيئة التي يضطرب فيها ونجاحه في ما يكتب قائم على فهم حقيقتين هامتين : اولاهما استبطان العلاقة بين اسباب الحياة وثانيهما وعي الفرد بما فيها من إثارة . وعن هاتين الحقيقتين تنبع مسؤولية الادب — او الفن بعامة — الاجتماعية . »

توطئة :

نستطيع ان نقول ان اي حرب لا يتاح لها ان تمر دون ان تخلف من المشكلات ما لا يمكن للمجتمع ان ينتهي الى حله بسهولة، وهي مشكلات تعرض للفن والعلم والفلسفة والاقتصاد كما تعرض للدين والعرف والتقاليد وغيرها من تلك القيم التي نحرص على تقديسها. إنا لا نبالغ ولا نسرف ولا نشتط، ولكنا نقرر واقعاً يؤيده التاريخ وتقرره حياتنا الحاضرة.

ولماذا لا نقول مثلاً ان الحروب الصليبية لم تكن دينية بقدر ما كانت اقتصادية ، استهدفت بها اوروبا فتح اسواق لتجارتها؟ الا ترى ان الغرب بعد فشله الذريع وبعد ان توطد سلطان العرب في منطقة الشرق الأوسط هرع الى البحث عن طريق آخر للتجارة؟ وانتهى به الأمر الى الكشف عن كروية الارض ودورانها حول محورها وحركتها حول الشمس فانهار بذلك كثير مما أقامه القدماء من معرفة ؟

وعصر النهضة في اوروبا لم يكن إلا نتيجة للحرب التي دارت بين الأشراف والطبقات المتوسطة، فاتسعت المدن وضؤل سلطان الريف ، وضعفت الأرستقراطية وقويت البرجوازية . ومن هنا نفهم لماذا تقشع سلطان العرب عن الاندلس ، ثم لماذا نشبت الثورة في فرنسا وفي غيرها من ممالك اوروبا !

ان تاريخ هذه الفترة لم يتضح إلا على نحو ناقص، او قل إن التسلسل التاريخي لم يفهم إلا فهماً ناقصاً. ولو احس اولو الامر وقتذاك ان هذه الحركات جميعاً ليست إلا صدى للفردية ، او للعصامية بعبارة اخرى ، لجنبوا المجتمع كثيراً من تلك الحروب

للبوليس ؛ لقد جعلوا من قائد الدرك سياجاً يتقون به الرصاص، فيخترقون نطاق البوليس ولا يستطيع استعمال سلاحه لمنعهم ، خوفاً من اصابة القائد .

كانت المفاجأة اسرع من ان تدع لقائد الدرك او لغيره من رجال البوليس وقتاً لعمل شيء . فتراخت ايديهم بالبواريد في ذهول وارتباك . وفي مثل لمح البصر كان الشبان قد اخترقوا نطاق البوليس .

لم يعلم ، اول الامر ، بما حدث غير الواقفين قريباً من مكان الثغرة التي فتحت في الساعة . وكانت سرعة الخاطر عند الشباب الذين تمكنوا من فتحها امام الجماهير في تلك الساعة العصيبة ، كهرباء سرت في نفوسنا فهزتها ، فانطلقت من حناجرنا جميعاً صيحة ابتهاج وارتياح ، ونحن نشرف من حافة السطح على الشارع ؛ فتطلع الينا الجمهور متسائلاً،فأخذنا نشير لهم الى مدخل الساحة ، الى الثغرة ، حيث اخذت طلائع الطوفان تتدفق الى الساحة .

وفي غمرة المفاجأة كان كثير من رجال البوليس قد جرد من سلاحه ، واصبحت القوة بكاملها مضطرة الى الانسحاب ، والا وقعت في طوق من المتظاهرين ، بين الذين اخترقوا الساحة ،وبين الذين لايزالون في خارجها،وقد اصبح المتظاهرون يستطيعون مقابلتها بالسلاح الذي اخذوه منها .

وهكذا اخذت قوات البوليس تنسحب مسرعة الى ثكناتها. ثم سرعان ما اصبحت الساحة العامة ، وامواج الطوفان تتلاطم في مداها الواسع ..

صار احتجاج الشعب حقيقة واقعة صارخة ، لا يستطاع تجاهلها . واصبح الشعب فوق الأحكام العرفية ، لا بل ان الشعب كان قد وضع نفسه في موضع عطل الاحكام العرفية تعطيلاً.

فلم تجد السلطة مخرجاً إلا باعلان استقالة الوزارة حالاً ، والقبول بانتخاب لجان شعبية تمثل احياء المدينة ، للنظر معها في تأليف وزارة جديدة ، على ان تتولى تلك اللجان اجراء احصاء جديد ، وان تعطى صلاحية توزيع القمح وتحديد كميات الطحين للافران ، حسب احتياج الاحياء .

وهكذا كان .

هاشم محسن الامين